الفصل الرابع
الحتمية الصحراوية !!

أنا سعيدة لأني امرأة، فلو كنت رجلاً لاضطررت إلى الاقتران بامرأة !

- . . . . . -

الدين الصحراوي ... والدين الزراعي ؟!

وموقف المؤلف من العرب، ينسجم مع طبيعة مواقفه في الكتاب عامة ... فقوامه التعميم والتناقض .

فهو يتهم خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز، بأنه أسهم في سقوط الدولة الأموية، وقيام الدولة العباسية على أنقاضها، وهذه دولة سيطر الفرس فيها على مقاليد السلطة، بعد أن كان العصر العربي هو سيد الموقف في دولة بني أمية !.

وفضلاً عما في هذا الكلام من تزييف لتاريخ عمر بن عبد العزيز، وهو تزييف سيأتي بيانه -إن شاء الله-، فإنه ينطوي على تجاهل لثلاث حقائق معروفة لكل منصف :

١- أن الإسلام دعوة إنسانية للبشر كافة، وإن تولى العرب في صدر الإسلام شرف حمل الرسالة. والمؤلف يتهم الكواكبي في العصر الحديث، بأنه استورد فكرة القومية العربية، التي يصفها المؤلف بأنها « دعوة خبيثة هدامة »[١]، وأن الغرب أراد بها تفتيت وحدة الصف الإسلامي !!

٢ - أن تعصب بني أمية للعرب على حساب المسلمين الأعاجم (وقد بلغ درجة استمرارهم في أخذ الجزية من المسلمين غير العرب !!)، لعب دوراً

---

(١) ما من شك في أن الإسلام يرفض الدعوات العنصرية العرقية، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، دون أن يعني ذلك الانتقاص من قيمة الذين حملوا رسالة الإسلام إلى البشرية، وكان معظمهم -في صدر الإسلام- من العرب .

رئيسياً في تغذية الدعوات الشعوبية الحاقدة على العرب وعلى الإسلام معاً . وهذا التعصب الجاهلي أسهم في زوال الدولة الأموية، وليس عمر ابن عبد العزيز الذي أصلح ـ خلال فترة خلافته القصيرة ـ هذه الأوضاع المعوجة، لكن خلفاءه عاودوا سياسة أسلافهم في إعلاء العنصر العربي بصورة أثارة حفيظة المسلمين من غير العرب، وشجعت غالبيتهم الساحقة على تأييد الدعوة لبني هاشم من عباسيين وعلويين.

٣ ـ أن القول بسيطرة غير العرب سيطرة مطلقة على خلفاء بني العباس، تعميم غير علمي ... فمقتل أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخرساني، ونكبة البرامكة على يد الرشيد، هي أحداث تشير إلى نقيض تعميم المؤلف، في شطر القوة من الخلافة العباسية، التي دامت ـ زمنياً ـ أضعاف مدة الخلافة الأموية !!.

* * *

العقلية القاحلة

في موضع آخر (ص ٢٠٧) يطلق حكماً جديداً، خلاصته أن طبيعة العربي كارهة لكل جديد !! وهذا ما يدعوه إلى تسمية المجتمع الإسلامي بـ « أرض النفاق » إذ يسوده جو من النفاق ـ لدى الجميع : الحاكمين والفقهاء والرعية !! ـ يصعب أن نجد له مثيلاً في أي مجتمع آخر (ص ٢٠٧).

وطبيعة العقلية العربية (لنلاحظ إصراره على مصطلح « طبيعة » أي أنها خصيصة ثابتة !!) طبيعة متطرفة، فالعربي لا يعبر عن رأية إلا بصيغة منتهى التفضيل، ولا يرتاح إلا إن تطرف في أحكامه ... فالشيء عنده إما ممتاز أو فظيع، والرجل إما ملاك كريم أو شيطان رجيم (٢٧٠).

وهذه العاهة، قد يرجعها البعض إلى طبيعة الصحراء، التي تركت أثراً عميقاً في شخصية العربي (ص ٢٧٠) ... وينسى صاحبنا هنا أنه بنى نظريته كلها على أن الشعوب المفتوحة غيرت معالم الإسلام نفسه، لكنها، فيما يبدو ـ لم تنجح في إزالة (رواسب الصحراء والقحط من شخصية العربي الكاريكاتيرية، التي تذكرنا بالأفلام الصهيونية من إنتاج شركة كانون !!).

والعربي لا تخطر بباله الدقة، لأنها من سمات المجتمع الصناعي (ص٢٧١).. وحيث أنه ملتزم هذه الإطلاقات الجائرة، فإنه يتيح لنا أن نسأله: ألم تغير المجتمعات الزراعية المستقرة التي عاشها معظم العرب بعد الفتوحات من طبيعة عقليتهم المتصحرة؟!.

ولأن أوان الرد لم يحن بعد، فإنه يكفي هنا أن أقدم شواهد من أقوال

المؤلف، استخدم فيها صيغة منتهى التفضيل التي يذم بها الأمة!! ففي الصفحة ٩٧ يصف ابن سينا والغزالي وابن خلدون بأنهم « ثلاثة نفر هم أعظم مفكري الإسلام طرا »(!!!!).

وفي الصفحة ٢٤٧ يصف الواحدي بأنه صاحب أفضل كتاب في أسباب نزول القرآن.

وفي الصفحة ٣٨٥ يقول عن عبد الرؤوف فطرة: إنه أعظم المفكرين المسلمين السوفيات وأكثرهم نضجاً وعلماً واتزاناً، بل إن فطرة في الاعتقاد الخاص للمؤلف: هو أعظم من ظهر من المفكرين المسلمين منذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده إلا إذا استثنينا أحمد كسروي (!!!!!).

* * *

لكنهم عباقرة

وفي معرض حديث المؤلف عن التيار الثاني – الذي يعجبه شخصيًا– من المستشرقين (ص ٤٠)، يقول: « رأوا في النبي شخصية قوية مؤثرة، استطاعت أن توفر الحل لمشكلة بالغة الصعوبة والتعقيد، ألا وهي بناء دولة وإمبراطورية عظيمة، من لَبِنات القبائل العربية المتفرقة المتنازعة، وإيجاد المنفذ للعبقرية العربية الخلاقة (!!!) حتى تساهم مساهمة إيجابية في تاريخ العالم وحضارته ».

وبصرف النظر عن تشويه هذا التيار الاستشراقي الذي يراه المؤلف موضوعياً ومنصفاً، تشويهه لرسالة محمد ﷺ، بتقديم النبي في صورة قائد سياسي يبحث عن مصالح قومه العرب، الذين كانت « عبقريتهم » تبحث عن مَنْفَذ!! فإن الذي يثير الدهشة هو كيف يصبح العرب – عند المؤلف – عباقرة وهم في جاهليتهم وتمزقهم وتبعيتهم للفرس والروم ـ، بل وتغدو عبقريتهم خلاقة (بصيغة المبالغة !!)؟! وفي الصفحة ١٣٨ يتحدث المؤلف عن « المساهمة العربية الصرفة في الحضارة الإنسانية » (ومع أنها مساهمة ليست عربية صرفة، فإن اتهامات المؤلف السابقة للعرب والفتوحات تثير غيظ الحليم، خاصة عندما يخلط الرجل ويتناقض). ويبدو ـ من رصد مجمل تناقضات المؤلف ـ أن هذه العبقرية تبخرت بعد الإسلام، وعقب الفتوحات تحديداً، فتبادل الفاتحون المسلمون والشعوب التي فتحوا بلدانها، أسوأ ما لدى كل منهما من طبائع ذميمة. فالفاتحون خرجوا للنهب وشعوب الأقطار المفتوحة

خدعت الفاتحين فأدخلت في دينهم الجديد عقائدها وطقوسها القديمة، بعد أن دثَّرتْها بلباس إسلامي خارجي!!... والفاتحون ـ البدو ـ جاؤوها بأفكارهم الشوهاء وبعشقهم المَرَضي للبلاغة الجوفاء، وبميلهم الشديد للتطرف !!! .

وهذه ـ لعمري ـ صورة لم يتوصل إلى تشكيلها بكل هذا السواد، حتى غلاة المستشرقين .

وينسى المؤلف « العبقرية العربية الخلاقة »، فيتحدث (ص١٤٥، ١٤٦) عن تحول الإسلام من مجرد دين (!!) إلى حضارة وأسلوب عيش ومنهج فكر (يبدو أن سكان البلدان المفتوحة هم الذين حوَّلوا الإسلام من مجرد دين إلى حضارة و....!!! مع أن أي منصف يدرك أن العكس هو الصحيح، فالإسلام هو الذي حرر تلك الشعوب بحضارته الإنسانية الفريدة!! لكن المؤلف متأثر بالفهم الغربي لمدلول كلمة « دين » التي تعني ـ بحكم سيادة النصرانية هناك ـ العبادات فقط !!) .

ويضيف أن ظروف الاستبداد السياسي التي سادت الأقطار الإسلامية كافة، عززت عند شعوبها مواقف عقلية مشابهة لعقلية البدو، كنزعة الإيمان بالقضاء والقدر (!!!) .

إن من أبرز أعاجيب المؤلف ـ وهي وفيرة ـ أنه يصنع الكذبة ثم يصدقها ثم يطلب منا أن نسير وراءه!! .

إن التاريخ الذي كتبه الغربيون أنفسهم عن استبداد قياصرة الروم وأكاسرة الفرس، يفضح أكذوبة هذا الرجل الذي يوحي بأن شعوب البلدان المفتوحة عرفت الاستبداد السياسي على أيدي المسلمين، مع أن جوستاف لوبون (وأنا أعرف حكم المؤلف عليه بأنه جاهل!!) يقول: ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من

العرب!! والعقل ـ عند العاقلين حقاً ـ يؤكد أنه لولا عدل المسلمين لما تمكنوا من فتح تلك الأرجاء الواسعة بسهولة، وخلال فترة زمنية قياسية .

ولا يزال أطفالنا يذكرون قولة الصاحبي الجليل ربعي بن عامر ـ رضي الله عنه ـ لرستم قائد جيوش كسرى، يلخص له فيها سبب خروج المسلمين: « اللّه ابتعثنا، واللّه جاء بنا لِنُخْرِجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »[١] .

نحن لا ننكر أن الخلفاء الأمويين والعباسيين لم يكونوا ـ إلا قليل منهم ـ في مستوى الخلافة الراشدة ... لكنهم لم يتحولوا إلى الصورة التي نسجها أبو الفرج الأصبهاني من خياله المريض الحاقد[٢]، والتي أكمل حبكتها كتاب الفجور والتهتك « ألف ليلة وليلة » الذي يكفي أنه مجهول المؤلف !! ومتى كان اللقطاء يكتبون تاريخاً ؟ فما بالك أن يكتبوا تاريخاً نظيفاً .

وإنه ـ تبعاً لمنطق المؤلف ـ ينبغي ألا يحزنه ما أسماه انتقال الدولة من أيدي العرب إلى أيدي الفرس، لأن الإسلام ـ بزعمه ـ لم يتحول من مجرد دين إلى حضارة وأسلوب علم ومنهج تفكير، إلا عقب الفتوحات، أي: عقب احتكاك العرب ذوي العقول الصحراوية القاحلة، بأهل الحضارات البائدة العظيمة، والفرس في طليعة هؤلاء !! .

* * *

(١) حياة الصحابة ـ محمد يوسف الكاندهلوي ـ ط٥ ـ ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ـ دار القلم بدمشق ج٣ ـ ص٣٦٠ .

(٢) في كتابه « الأغاني » .

القدر من الصحراء

ويتجنى المؤلف على العقيدة التي يقول إنه من معتنقيها، إذ يرفض الإيمان بالقضاء والقدر وهو من أركان الإيمان في الإسلام ... يرفضه مدعياً أنه نتاج نزعة بدوية انتقلت إلى الأقطار الإسلامية كافة، يصحبها الاستبداد السياسي.

ويكمل الكاتب « حبكة » ادعائه، فيقول : إن جذور هذه النزعة واضحة عند البدوي، إذ لا سلطان له على الماء والكلأ، وهما قوام معيشته، لأنهما سبب لحياة مواشيه.

والبدوي قد يضل طريقه (يا للسخرية، إذ أن ابن البادية - بالتجربة العملية - هو أكثر الناس مهارة في معرفة الدروب في الصحراء !!! لكنه الهوى)، وقد يتعرض لهجوم مباغت (كأن ذلك سمة خاصة بالصحراء وكأن الحروب الرهيبة التي شهدها عصرنا الحديث، لم يقع كثير منها فجأة، ولم يمنع التوقع المسبق إياها من الحدوث !!) ... ويرى المؤلف أنه يتفهم البدوي إذا ردد قول الشاعر العربي :

ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يُغيِّرُ اللهُ من حال إلى حال

لكنه - أي المؤلف - لا يسيغ موقفاً كهذا لدى ريفي مصري أو عراقي، يبذر الحب في فصل، مطمئناً إلى حصاد المحصول في فصل، آخذاً حيطته بإقامة السدود ... (!!) ويخلص المؤلف إلى أن الاستبداد مسؤول وليس الغازي البدوي وحده (نعم ... الغازي البدوي كخالد بن الوليد وأبي عبيدة ابن الجراح والمثنى بن حارثة الشيباني وعمرو بن العاص ... الغازي البدوي

الذي خرَّب على أمثال حسين أمين حياة الذل التي عاشها أسلافه على أيدي الرومان المتحضرين القادمين من بلاد الأنهار !!).

ولأننا سنبحث مسألة « القضاء والقدر » في حقيقتها بعيداً عن الأوهام التي تُلْصَقُ بها ـ عفواً أو عمداً ـ، فإننا نكتفي هنا بتذكير المؤلف ـ ومن ينساق وراء تخرصاته ـ بإعصار كاليفورنيا الذي حطم قبل سنتين ممتلكات ومزارع في الولايات المتحدة، قدرت بمئات الملايين من الدولارات !!!!.

* * *

إرث من المثالب

وفي الصفحة ١٤٨ يقول المؤلف : لقد ورثنا ـ يعني مسلمي البلدان المفتوحة ـ عن البدو العرب الإيمان بالمدلول السحري للكلمة عند العربي في الجاهلية، حيث ينظم قصيدة يتغنى فيها بانتصار قبيلته من قبل أن تقع المعركة (!!).

والمؤلف بذلك يزعم أن تلك كانت عادة سائدة لدى العرب قبل الإسلام، ولم يقدم ولو دليلاً يتيماً لحادثة فريدة، تشهد لكذبته الجديدة !!. ولقد زعم من قبل أن كتاب « الشعر الجاهلي » لطه حسين، هو أحد دليلين على خصوبة الفكر المصري في الثلث الأول من القرن العشرين الميلادي، فهل آمن هنا ـ لأن الأمر يتطلب نقيض موقفه السابق ـ بأن الشعر الجاهلي شعر حقيقي، قاله الجاهليون بأنفسهم، فيصبح الكاتب (الجريء المستنير : طه حسين) متجنياً على الشعر الجاهلي ـ باعتراف صاحبنا ـ، وبذلك تنهدم نظرية « خصوبة الفكر المصري » المستمدة من طه حسين وعلي عبد الرازق ؟!! .

وعوداً على بدء، يعزف المؤلف من جديد معزوفة البدوي الذي لم يورثنا إلا المثالب، فيذكر أننا اكتسبنا من تفكير البدوي، أن نقصر اهتمامنا على اليوم دون الغد (ص ١٤٨)، فالبدوي لا يستطيع التنبؤ بما في الغد (كأن سواه من البشر قادر !! أستغفر الله !!) ومع أن الكاتب الهمام ينفي عن النبي علم أي شيء من المغيبات ـ والمسلم يدرك أن النبي إذا تكلم عن أمر غيبي فلا يرجم رجماً وإنما هو وَحْيٌ يُوحَى ـ مع أنه ينفي ذلك عن النبي، يجعل غير البدوي هنا

قادراً على ما لا يمكن للوحي أن يبلغه للنبي !!! ومن عجب أنه يصر على أنه مسلم، فكيف يصدق النبي في تبليغ القرآن ويكذبه فيما سواه ؟! لا حول ولا قوة إلا بالله .... ويكمل المقارنة لإيضاح الفوارق، فيقول : إن الألماني ـ مثلاً ـ يخطط منذ الآن لإجازة محددة قد يقضيها بعد ٥ سنوات، أما نحن فلا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله (نعوذ بالله من الخذلان ...).. الرجل يعترض على آية قرآنية قطعية الدلالة فما بقي له من إسلامه المزعوم ؟! وزيادة في التلبيس يورد الآية دون أن يشير إلى أنها من كلام رب السموات والأرضين، بل إنه لم يتنازل فيضعها بين قوسين في أقل حدود اللياقة للدلالة على أنها نص ما !! هل هناك من يدعي الإيمان بأي دين سماوي، يهزأ من مشيئة الله وينكرها ؟! . أما الألماني فهو يعلم الغيب ـ وحاشا لله ـ فهذا كفر بواح من جهة الشرع، وهذيان لا يقول به عاقل حتى من غير المؤمنين.

ولست أدري إن كان الألماني حاصلاً على ضمان ضد الموت قبل السنوات الخمس التي منحه المؤلف إياها من بنات خياله العليل؟ !!.

* * *

الصحابة والحتمية التاريخية

لكن المؤلف ـ للإنصاف ـ يؤمن بإرادة إلهية « متمثلة في حتمية للتاريخ يمكن تخمينها من خلال مراقبة الاتجاهات والتيارات التاريخية. والذي يفهمه الكافة من كلمة « الإسلام » أنها تعني الإذعان لإرادة الله والتسليم بحكمته وغاياته والرضا بقضائه، مع العمل على أن تكون هذه الإرادة هي العليا.

وليس ثمة تناقض بين « الرضا بقضائه » وبين « العمل على أن تكون إرادته هي العليا »، عن طريق المقاومة أو الثورة أو الجهاد مثلاً .... » (ص١٣٩ ـ ١٤٠).

وتبعا لذلك فإنه ـ يضيف المؤلف ـ « يمكن أن نتصور أن تكون بعض الحركات المسماه بالإسلامية في مجتمعنا ضد إرادة الله، وبالتالي غير إسلامية، إن هي تجاهلت الحتمية التاريخية، في حين يمكن أن يكون بعضها إسلامياً حقاً ـ دون إدراك واع منه ـ إن كان ذا وعي بالاتجاهات التاريخية، مساعداً بجهده على دفعها إلى غايتها المنشودة » (ص١٤٠).

ونلاحظ على ذلك أن المؤلف بات هنا مؤمناً بالقضاء والقدر، الذي « كان نزعة بدوية » !! لكنه يؤمن به على أنه الحتمية التاريخية، التي جاء بها كارل ماركس، وتوفي خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وصحابته الكرام دون أن يعلموا بها، فهم حسب أفكار حسين أحمد أمين، غادروا دنيانا دون أن يكتمل إيمانهم !! والعياذ بالله من سوء المنقلب.

نحن لا ننكر وجود سنن إلهية في الكون وفي حركة الأنفس والجماعات،

لكن هذا شيء وأوهام هذا الرجل عن حتمية كارل ماركس شيء آخر.

ولنا أن نسأله : كيف تنكر القضاء والقدر بالنسبة للفرد، وتقر بالحتمية التاريخية على أنها - وحدها - إرادة الله ؟! ...إن أي طالب نَابِهٍ في المرحلة الثانوية، يعرف اليوم أن ثقة العلم - حتى في مجال الطبيعة والفيزياء .... - بالحتميات باتت محدودة، عقب اكتشافات ونظريات ريمن ولوباتشفسكي وآينشتاين وهزنبرغ فما بالك بمجال الإنسانيات ؟.

ثم أليس من التزوير أن تصبح « إرادة الله هي العليا » بدلاً من « لتكون كلمة الله هي العليا » فإرادة الله - عز وجل - هي العليا سواء أجاهد المسلمون أم تقاعسوا، لكن النتيجة بالنسبة إليهم ليست واحدة فالجهاد شرف في الدنيا وفي الآخرة، والتقاعس خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة ... أما كلمة الله - عز وجل - التي كلف المسلمون بالجهاد لتكون هي العليا ، فالمراد بها دين الإسلام.

ويصل الكاتب إلى غاية غاياته (ص١٤١)، فيؤكد لنا أن التشبع بروح الإسلام لا التزام أحكام معينة منه متناثرة، كفيل بأن يكون بمثابة البوصلة التي تهدينا سواء السبيل في أي مكان أو زمان كنا فيه، ومع اختلاف الظروف.

وهذا كلام فيه - مبدئياً - بعض الحق، إذا قلنا : إن الالتزام يجب أن يكون التزام أحكام الإسلام التزاماً تاماً، مع وعي كامل بمقاصد الشارع الحكيم، ضمن مهمة القيام بعمارة الكون والعمل للآخرة معاً، كما علمنا أسوتنا الحسنة محمد بن عبدالله ﷺ .

لكن المؤلف لا يعطينا مثل هذه الفرصة، لأنه يخشى - فيما أحسب - أن نسيء فهم كلامه، ولذلك يضرب لنا مثلاً ليشرح ما عناه بروح الإسلام ... فيقول ما نصه (ص ١٤١) :

« كان الشكل الغالب للملكية في شبه جزيرة العرب في الجاهلية وفي زمن الرسول عليه السلام هو الملكية المنقولة دون العقارية. وكان يمكن للبدوي أن يحمِّل راحلته كل ما يملكه وينتقل به من موطن إلى موطن سعياً وراء الماء والكلأ . وبالتالي فقد كان الاعتداء على الساري في الصحراء بسرقة ناقته بما تحمل من ماء وغذاء وخيمة وسلاح، في مصاف قتله. لذلك كان من المهم للغاية أن تقرر الشريعة عقوبة حازمة رادعة بالغة الشدة لجريمة السرقة في مثل هذا المجتمع.

أما وقد دخل الإسلام مجتمعات تعرف شكلاً من الملكية أهم من الملكية المنقولة، وأصبح سلب الرجل قربة مائه لا يعني أمراً جللاً، فقد يجد المجتمع عقوبة لجريمة السرقة غير العقوبة في المجتمع البدوي، دون أن يكون اختياره للعقوبة الثانية خروجاً على الإسلام وروحه. بالعكس، فإن الالتزام بروح الإسلام يقتضي منا اختيار هذه العقوبة الثانية، حيث أنها ـ في المجتمع غير البدوي ـ تحقق نفس النتائج المرجوة التي توخاها الإسلام في المجتمع البدوي.

إن الشاعر يقول :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

بمعنى أن المعاملة الواحدة في حالتين مختلفتين ستسفر حتما عن نتيجتين متنافرتين. في حين يعلم أي معلم صبيان مثلاً أن هناك وسائل متباينة لمعاملة صبية مختلفي الطباع والمستوى، للوصول إلى نتيجة واحدة وهي التلقي الحسن للعلم.

كذلك بالنسبة لتحريم التصوير في مجتمع كان إلى عهد قريب يعبد

الأوثان، وكذلك بالنسبة للحجاب الذي فُرِضَ في المدينة حيث كان النساء يَلْقَيْنَ من المتسكعين من شباب المدينة كل مضايقة وعبث كلما خرجن وحدهن إلى الخلاء، فنزلت آية :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ... ﴿٥٩﴾ ﴾ (١)

وذلك حتى يميز الشبان بين المحصنات وغير المحصنات ..... » .. انتهى كلام المؤلف !!

* * *

(١) سورة الأحزاب : الآية ٥٩

الفـــاروق وأبـــوعبيـــدة

وبرغم ذلك كله، فإننا نشارك المؤلف تنديده بالاستبداد السياسي، وبلعب كثير من حكام المسلمين بمستقبل شعوبهم، لكننا لسنا معه في رفض الإيمان بالقضاء والقدر ... بل إننا نؤكد أنه لو كنا ـ جميعاً ـ مؤمنين حقاً بالقضاء والقدر كما فهمه الصحابة من الرسول ﷺ، لما سكتنا على حكام جائرين ولما خشينا في الله لومة لائم، وليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر أن نهجر الأسباب والمعطيات الواقعية، فإن في الكتاب والسنة القولية، وفي السلوك العملي للنبي الكريم وأصحابه الكرام، عشرات العلامات القاطعة، التي تميز التوكل الحقيقي من التواكل الكاذب الذي لا يعدو أن يكون تفريطاً بالواجبات، مع تبرير ذلك التفريط تبريراً زائفاً باسم القضاء والقدر.

ولا نزيد الآن عما قاله عمر بن الخطاب « رضي الله عنه » لأبي عبيدة عامر ابن الجراح، الذي عاتب خليفة المسلمين لأنه أبى ـ ومن معه ـ دخول المنطقة الموبوءة بالطاعون في فلسطين، قائلاً : أمن قدر الله تفر ياأمير المؤمنين ؟ فأجابه الفاروق : نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله يا أبا عبيدة ! ...

ونعود إلى أسطورة « البداوة » فنقول لصاحبها : لِمَ لَمْ تعترض على أن الله ـ عز وجل ـ اختار خاتم أنبيائه ورسله، من مكان مقفر « واد غير ذي زرع »، وليس من أوربا الخضراء ؟! .

* * *